الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا ونسألك التوفيق لما تحبه وترضاه . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسقِ لنا ربّك فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ويحك أتدري ما تقول؟)) وسبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ((ويحك إنه لا يستشفَع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سماواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب)) رواه أحمد وأبو داود .

****

أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث ؛ حديث جبير بن مطعِم رضي الله عنه في باب قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ، وقد ساق المصنف رحمه الله هذا الحديث لما فيه من بيان وجوب تعظيم الله سبحانه وتعالى ، وأن من تعظيمه جل وعلا أن يصون المسلم كلامه من كل قولٍ يتنافى مع التعظيم ويتنافى مع معرفة العظمة لله جل وعلا ، وفي الحديث تنبيه إلى أن خطأ الإنسان فيما يتعلق بالله جل وعلا أو أسمائه وصفاته فرعٌ عن نقص المعرفة بالله جل وعلا ، وأن المعرفة به سبحانه وتعالى إذا تمكنت من القلب فإن أقوال الإنسان بإذن الله تبارك وتعالى يكون فيها السلامة ؛ لأنه يتكلم عن تعظيمٍ لله تبارك وتعالى على ضوء ما جاء في كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

حديث جبير الذي ساقه المصنف فيه أن أعرابيا جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : ((**يا رسول الله جهدت الأنفس**)) أي أصابها الجهد؛ وهو المشقة والتعب .

((**وضاعت العيال**)) لأنه لم يجد لهم أولياءهم ما ينفقون عليهم ، لم يجدوا لهم القوت، الطعام .

((**ونُهكت الأموال**)) أي الأموال بدأت تقِل وتضعف وتنقص .

((**وهلكت الأنعام**)) أي بسبب القحط وقلة المياه وجفاف الزروع والنبات .

((**فاستسق لنا ربّك**)) أي اطلب من الله وادع الله أن يسقينا أن ينزِّل علينا الغيث . وهذا الأمر كان يفعله الصحابة، ولا يزال يفعله المؤمنون ؛ يُطلب من الإمام الذي يصلي بالناس أن يستسقي بهم ، يتوجه إلى الله عز وجل وهم وراءه صفوف يصلُّون ويتجهون الله تبارك وتعالى بالدعاء ، ويرفع يديه في دعائه ويرفعون أيديهم ويدعو ويؤمِّنون ((استسق لنا)) أي اطلب من الله تبارك وتعالى أن يسقينا . وهذا التوسل لا بأس به وهو التوسل بدعاء الصالحين الأحياء ، أن يُطلب من الصالح الحي أن يدعو الله له ، ولا يخاطَب بهذا غائب بل حي حاضر ، ولا يخاطب بذلك أيضا ميت ، بل هذا توسل بالصالحين الأحياء ، ولهذا لما مات النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفعل هذا معه ، وإنما كانوا في حياته عليه الصلاة والسلام يقولون له : استسق لنا أو اطلب لنا من الله ، أما بعد مماته لم يكن أحد من الصحابة وسلف الأمة يفعل شيء من ذلك ، بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أصيبت الديار في زمانه بالقحط : «اللهم إنا كنا نستسقي بنبينا والآن نستسقي بعم نبينا ، قم يا العباس فادع الله لنا» لماذا قال قم يا العباس فادع الله لنا وعدل عما كانوا عليه من طلب الدعاء من النبي عليه الصلاة والسلام ؟ الجواب واضح ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام مات ، وقد قال: ((إِذَا مَاتَ ابن آدم انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)) ، فهذا التوسل مشروع؛ التوسل بدعاء الصالحين الأحياء ولا يزال المسلمون يفعلونه .

قال: ((**استسق لنا ربك ؛ فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك**)) ؛ «نستشفع بك على الله» أي نطلب منك أنه تشفع لنا عند الله سبحانه وتعالى، بمعنى استسق لنا ربك يعني اطلب لنا من الله تبارك وتعالى أن يسقينا أن ينزل علينا الغيث ((إنا نستشفع بك على الله وبالله عليك)) «بالله عليك» أي نستشفع بالله عليك معنى الكلام أي نطلب من الله أن يشفع لنا عندك «وبالله عليك» ، وهذا الكلام كلامٌ خاطئ ولا يليق أن يقال في حق الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الله عز وجل وتعظيمه جل وعلا حق تعظيمه تأبى هذا الكلام ، لأن الاستشفاع يكون من الأدنى للأعلى ، أما ان يطلب من الأعلى الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢] يُطلب منه أن يشفع!! هو بيده أزمة الأمور جميع المخلوقات نواصيها بيده وكلها طوع أمره وتدبيره وتسخيره والأمر له جل وعلا من قبل ومن بعد ، فكيف يقال في

حق من هذا شأنه اشفع لنا عند فلان؟! «نستشفع بالله عليك»!! فهذه الكلمة في حق الله تبارك وتعالى لا تليق في حقه سبحانه ولا يصح أن تقال ، وهي تتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التعظيم لله جل وعلا .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**ويحك أتدري ما تقول ؟**)) انتبه لهذه الكلمة جيدًا ((أتدري ما تقول)) هذه الكلمة تكشف لك عن حقيقة في واقع كثير من الناس ما هي ؟ أن كثيرًا منهم يقول كلامًا ولا يدري ما يقول ، يعني لا يدري أبعاد قوله ، يكون في قوله جنوح أو زلل أو خطأ أو انحراف ولار يدري عن أبعاد قوله ، حتى إن كثيرًا منهم عندما ينبَّه على خطأ درج عليه لسانه وتكرر عليه مدة طويلة في زمانه وعمره ماذا يقول؟ سبحان الله أول مرة أنتبه لهذا ، أول مرة أعرف هذا ، ما سبق أن ، وتجده ربما هذه الكلمة قالها مئات المرات في حياته .

إذًا هذا يبين لنا أن ثمة مشكلة في كثير من الناس في أقوالهم أنه يقول كلاما وهو في الحقيقة لا يدري ما يقول ، ومعنى لا يدري ما يقول: يعني لا يعرف أبعاده لا يعرف ماذا يحتوي عليه هذا الكلام من خطأ ، لأنه لو كان يدري ما يقول لما قال كلاما يتنافى مع تعظيم الله ، لأنه هو في نفسه معظم لله ، في قلبه معظم لله ، لكن هذا خطأ درج عليه لسانه بسبب نقص المعرفة ونقص العلم ؛ لهذا قال : ((أتدري ما تقول)) هذه حقيقة ينبغي أن نقف عندها لتكون مفتاحًا لنا في التنبه ، وأن الواجب على الإنسان أن لا يكون خوضه في كل كلام ما يدري عن حقيقته وما لا يدري عن حقيقته ، بل يجب عليه أن يكون كلامه موزونا ، وأن يحسب للكلمة حسابًا .

الخطأ في القول له خطر ، قد يقول الرجل الكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا ، ((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)) ، فالمخاطرة هكذا بالكلام وبالأقوال ورمي الكلام جزافًا وكل ما دار في خلَد الإنسان أو خاطره من كلام قاله وهو ما يدري ما هو ؛ هذه مخاطرة . فالحديث يفتح للعبد بابًا في التنبه لكلامه وللخطأ في أقواله . وإذا سبرت مجالس الناس أو مجالس العوام تجدها لا تخلو من كثير من الكلمات التي تنطوي على مخالفات شرعية ، إما مخالفات في باب القدر ، أو مخالفات في باب الإيمان ، أو مخالفات في باب الأسماء والصفات والتعظيم لله تبارك وتعالى ، أو مخالفات في حق جناب الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلى غير ذلك من المخالفات اللفظية الكثيرة التي تدرج وتنتشر في كثير من العوام وهي مبنية على أنهم لا يدرون ما يقولون .

إذًا قوله عليه الصلاة والسلام ((**أتدري ما تقول**)) فيه تنبيه إلى وزن الكلام وضبطه بضوابط الشريعة ، وأن لا يكون الإنسان في ألفاظه منطلقًا يقول كل قولٍ وكل كلامٍ ما صح منه وما لم يصح ، بل يضبط كلامه ويزن كلامه بموازين الشريعة ، ((أتدري ما تقول)) يعني هذا كلامٌ لا يقوله من يدري بكلامه ويعرف أبعاد كلامه .

((**أتدري ما تقول**)) وهذا أيضا فيه تنبيه إلى أهمية العلم في ضبط الكلام ، أهمية العلم الشرعي ، لأن الإنسان متى ما خلا من العلم الشرعي وضعف حظه منه حصل فيه من فساد الكلام بحسب ما فرَّط فيه من العلم الشرعي ، فالعلم الشرعي يصون الإنسان ويصون ألفاظه ويصلِح منطقه وتكون به زكاته .

قال : ((**ويحك**)) وقوله «ويحك» هذه كلمة تقريع وزجر تأتي بها العرب للتقريع والزجر ((ويحك أتدري ما تقول)) ((**وسبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبّح**)) يعني بعد ان يقال للرجل ((ويحك أتدري ما تقول)) أخذ يسبّح ؛ سبحان الله سبحان الله يكررها عليه الصلاة والسلام ، يرددها عليه الصلاة والسلام ، مازال يردد تسبيح الله تبارك وتعالى .

((**حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه**)) يعني عُرف تغير النبي عليه الصلاة والسلام وظهور الغضب عليه صلوات الله وسلامه عليه. ((حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)) وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعرفون من وجهه عليه الصلاة والسلام الأمر ؛ إذا كان محرما عرفوه من وجهه ، إذا كان باطلا عرفوه من وجهه ، إذا كان أمرا طيبا مباحًا عرفوه من وجهه ، ((حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)) أي التأثر الذي كان ظهر على النبي عليه الصلاة والسلام الغضب .

ثم أعاد الخطاب للرجل منبهًا له على خطأه بعد أن سبح عليه الصلاة والسلام ، والتسبيح: تنزيه لله ، والحديث يدل على مشروعية الاتيان بالتسبيح عندما يقال في حق الله سبحانه وتعالى قول خطأ أو كلام لا يليق بجلاله وعظمته ، قال عز وجل ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾[البقرة:١١٦] وقال جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨٠-١٨١] ينزه تبارك وتعالى هنا نفسه عما يصفه به أعداء الرسل والمخالفون للرسل ، فالله جل وعلا ينزه عن كل ما لا يليق به ، والتسبيح تنزيه الله جل وعلا، فلما قال هذا الأعرابي كلاما لا يليق بالله أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يسبح ويكرر التسبيح تنزيهًا لجناب الرب العظيم من أن يقال فيه مثل هذا .

قال : ((**ويحك إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك**)) ؛ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ؛ يقول الشافعي رحمه الله : إنما يُستشفع من الأدنى للأعلى ، يعني يُطلب من الأدنى أن يشفع عند الأعلى ، والأدنى لا يُستشفع عند الأعلى الذي هو رب العالمين إلا بإذنه سبحانه لأن الشفاعة ملكه ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤] ، أما أن يستشفع بالله على أحد من خلقه هذا كلام باطل ، لأن الله عز وجل بيده أزمة الأمور وجميع الخلق ممالك له ومخلوقات له أوجدهم من العدم تحت مشيئته وتصرفه وتدبيره ، فمن عرف الله سبحانه وتعالى وعظَّمه لا يمكن أن يقول في حق الله اشفع لنا عند فلان أو نحو هذه الكلمة ، فهذه تأتي من نقص المعرفة ونقص التعظيم لله تبارك وتعالى .

قال : ((**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك**)) وهذا فيه الشاهد للترجمة ولسوق المصنف رحمه الله لهذا الحديث لبيان وجوب تعظيم الله ؛ لأن قوله في الباب ((باب قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا

اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر:٦٧])) أي ما عظموا الله حق تعظيمه ، وكل خطأ يتعلق بجناب الله سبحانه وتعالى هو من نقص التعظيم ، حتى الأخطاء التي تكون في ألفاظ الناس هذه من نقص التعظيم ((شأن الله أعظم من ذلك)) .

((**ويحك أتدري ما الله؟**)) يعني أتدري من هو الذي قلتَ في حقه هذه الكلمة «نستشفع بالله عليك» .

قال: ((**إن عرشه على سماواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**)) هنا ينبه النبي عليه الصلاة والسلام أن الرب العظيم جل وعلا مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى كما أخبر ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف:٥٤] ، مستو على عرشه ومماليكه كلهم تحته وأيضا تحت تدبيره، ومشيئته سبحانه وتعالى فيهم نافذة وقدرته شاملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٠] ، وكلهم طوع تدبيره وتسخيره سبحانه وتعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، لا خافض لا رفع ولا رافع لما خفض ، الأمور كلها بيده ، فهل إنسان عرف الله عز وجل بهذه الصفة يليق به أن يقول مخاطبا الرب العظيم "اشفع لنا عند فلان"!! والملك ملكه والخلق خلقه وهو عليٌّ عليهم وهم تحت تدبيره وتسخيره ، أيقال في حق من هذا شأنه اشفع لنا عند فلان ؟! وفلان وغيره وجميع المخلوقات ملك له وتحت تدبيره سبحانه وتعالى

((**أتدري ما الله**)) يعني من عرف الله سبحانه وتعالى ما يقول هذا الكلام ، وهذا فيه فائدة: أن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته سبب صلاح العبد ، وأن العبد كلما كان بالله أعرف وبأسمائه سبحانه وتعالى وبصفاته صلحت أموره ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] ، «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ، المعرفة بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته هي التي تسوق العبد إلى كل خير ورفعة وعز وفلاح في الدنيا والآخرة ، وإذا نقصت هذه المعرفة ونقص حظ العبد ونصيبه منها يحصل عنده من أنواع الفساد وأنواع الخطأ وأنواع الانحراف الشيء الكثير . قال ((أتدري ما الله)) يعني أتدري من الذي قلت في حقه هذه الكلمة؟ بمعنى أنك لو عرفته حق المعرفة عظمته حق التعظيم لا يمكن أن تقول فيه مثل هذا الكلام .

((**أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا ، وقال بإصبعه كالقبة عليه**)) بمعنى أن العرش سقف للمخلوقات، وهذا أمر دلت عليه النصوص وشواهده كثيرة في السنة ، العرش سقف المخلوقات بل المعنى الذي جاء في هذا الحديث وهو أن العرش للمخلوقات كالقبة بعض أهل العلم استشهد له بالحديث الذي في الصحيح وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)) ، قال أهل العلم : ومثل هذا لا يكون إلا ما كان على هيئة القبة ، فعرش الرحمن هو سقف المخلوقات وهو أعلاها وأرفعها وأوسعها ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج:١٥] أي الواسع ، فهو أوسع المخلوقات وأكبرها وأعظمها ، وهو فوق المخلوقات والله تبارك وتعالى مستو على عرشه يدبر أمر المخلوقات ؛ يأمر وينهى ، يخفض ويرفع ، يعز

ويذل ، يعطي ويمنع ، يبسط ويقبض ، يحيي ويميت ، يدبر الأمر والكل تحت تدبيره ، لا يكون في هذا الملك وهذا الكون لا يكون في العالم من حركة إلا بتدبير المِلك مُلكه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

((قال باصبعه هكذا مثل القبة وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب)) فهنا الحديث في ذكر العرش وذكر علو الله تبارك وتعالى واستواءه على عرشه ، وفيه تعظيم الله جل وعلا ، وفيه صيانة الألفاظ والبعد عن الخطأ والغلط في حقه سبحانه وتعالى ، وهذه المعاني كلها معاني صحيحة لها شواهدها ودلائلها في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والحديث رواه أبو داود في سننه ، ومن أهل العلم من حسَّن هذا الحديث ، ومنهم من تكلم فيه من جهة الاسناد لأن فيه عنعنة محمد بن إسحاق ، فبعض أهل العلم ضعَّف الحديث من جهة إسناده ومنهم من حسَّن الحديث ، لكن المعاني التي في الحديث التي هي إثبات العرش وإثبات استواء الله على العرش وإثبات عظمة الله تبارك وتعالى والنهي عن مثل هذه الألفاظ ونحو ذلك هذا كله شواهده ودلائله في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله عز وجل: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياي: فقوله "لن يعيدني كما بدأني" وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته ، وأما شتمه إياي: فقوله "اتّخذ الله ولداً" وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) . **وفي رواية : عن ابن عباس رضي الله عنهما : ((وأما شتمه إياي: فقوله "لي ولد" وسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً)) رواه البخاري** .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله في باب تعظيم الله جل وعلا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((قال الله عز وجل))** ، وكل حديثٍ يرويه الرسول عليه الصلاة والسلام عن ربه يقول فيه ((قال الله عز وجل)) فهو حديث قدسي ، وهو بألفاظه ومعانيه كلام الله عز وجل.

قال الله عز وجل **((كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك))** قوله سبحانه وتعالى ((كذبني ابن آدم)) المقصود بـ«ابن آدم» ليس جميع بني آدم ، وإنما المقصود من بني آدم الكفار الذين ينكرون البعث ويشركون بالله سبحانه وتعالى ويتخذون الأنداد وينسبون لله الولد ، سواء من مشركي العرب أو من أهل الكتاب أو من غيرهم .

قال: ((**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك**)) قوله في الموضعين «ولم يكن له ذلك» فيه الشاهد للترجمة؛ لأن الواجب في حق الله سبحانه وتعالى أن يعظَّم وأن لا يخطئ الإنسان في حقه جل وعلا ، لا بقول فيه تكذيب ولا بقول فيه شتم أو انتقاص ، وأن تعظيم الله سبحانه وتعالى يتنافى مع ذلك قال (((ولم يكن له ذلك)) أي ليس له أن يقول في حق الرب العظيم والخالق الجليل سبحانه وتعالى مثل هذا الكلام فجناب الله اعظم عوز وجل . قال ((كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك)) ثم بيَّن ذلك ، بيَّن التكذيب وبيَّن الشتم ما هو .

قال : ((**أما تكذيبه إياي؛ فقوله: لن يعيدني كما بدأني**)) وهذا كلام الدهرية وغيرهم من منكري البعث ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾[التغابن:٧] هذا كلام من ينكر البعث . قال ((كذبني ابن آدم))، قال ((أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني)) أي أن الله لن يعيد المخلوقات ولن يعيد الناس كما بدأهم ؛ وهذا تكذيب لله سبحانه وتعالى لأن الله أخبر وأخبرت رسله بأن الناس يبعثون ويقفون بين يدي الله وإليه يعودون ويجازيهم بأعمالهم يثيب المحسن ويعاقب المسيء ، فمن نفى ذلك كذب الله جل وعلا .

قال : ((**أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته**)) أول الخلق: أي خلْقه لهذه المخلوقات من العدم ، خلق آدم من التراب ، خلق التراب جل وعلا أوجد التراب بعد أن لم يكن ، من العدم أوجده سبحانه ، وخلق آدم من التراب ، وخلق بني آدم من نطفة ، نطفة آدم ثم نطف ذريته فوُجد بني آدم بالتوالي ، فالذي أوجد هذه المخلوقات من العدم أهون عليه ، والأمر كله هين عليه سبحانه وإنما هذا لبيان الأمر وتوضيحه ، خلْق المخلوقات بعد أن تموت ، عندما تنظر للأمر من حيث هو لا من حيث قدرة الله وإنما الأمر من حيث هو ؛ خلْق المخلوقات وإيجادها من العدم أو إيجادها بعد أن تموت؛ أي الأمرين أهون من حيث هو ؟ فهذا المقصود ، أما الله عز وجل كل شيء عليه هين ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[يس:٨٢]، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[فاطر:٤٤] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:٢٠] قدرته شاملة لكل شيء ومشيئته نافذة جل وعلا، ولا راد لحكمه ، عطاءه كلام ومنعه كلام ، إذا أراد شيء قال له كن فكان جل وعلا ، ولكن هذا لبيان الأمر وتوضيحه ، خلَقَكم من العدم لا يعيدكم بعد أن أماتكم!! من يتفكر في عقله يجد الأمر في غاية الخطأ والانحراف ، لأن من أوجد من العدم قادر على أن يوجد بعد أن يميت الناس ، والأمر كله هين عليه سبحانه وتعالى .

قال : ((**وأما شتمه إياي فقوله : اتّخذ الله ولداً**)) أي نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا شتم ، انتقاص لله سبحانه وتعالى.

قال: ((**وأنا الأحد الصمد**)) هذا فيه فائدة أن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته تصون الإنسان من الغلط، من عرف الله بأنه الأحد ومن عرفه تبارك وتعالى بأنه الصمد فإنه ينزهه عما يتنافى مع أحديته وصمديته سبحانه وتعالى ، واسمه «الأحد» دال على أحديته أي تفرده سبحانه وتعالى بالكمال والجلال وتنزهه عن الشبيه والمثال جل وعلا ، و«الصمد» يدل على كمال صفاته وكمال غناه وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فالصمد هو الذي كمل في سؤدده كمُل في علمه كمُل في حكمته كمل في رحمته كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والصمد الذي تصمد إليه الخلائق وتفزع إليه في حوائجها ، فالصمد من الأسماء التي لا تدل على معنى مفرد وإنما تدل على معاني ، من معاني «الصمد» كمال صفاته ، ومن معاني «الصمد» شدة افتقار المخلوقات إليه وفزعها إليه في حوائجها ، فالصمد الذي هو الكامل في صفاته لا يليق أن يقال في حقه له ولد أو له صاحبة ، والأحد المتفرد بصفات الكمال ونعوت الجلال لا يليق في حقه أن يقال له ولد ؛ فهذا من وصفه بما لا يليق به من النقائص والعيوب تنزه وتقدس عن ذلك .

قال: ((**وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**)) ؛ «لم يلد» نفي لوجود فرع ، «ولم يولد» نفي لوجود الأصل ، بل هو عز وجل المتفرد بأحديته وصمديته وكماله وجلاله وعظمته جل وعلا ، « ولم يكن له كفؤا أحد» والكفؤ: هو النظير والمثيل والسمي ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥] استفهام بمعنى النفي أي لا سميَّ له ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾[النحل:٦٠] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢] فالله عز وجل لا سمي له ولا كفؤ له ولا نظير له ، تنزه وتقدس عن ذلك .

قال ((**وفي رواية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد**)) أي نسبة الولد إلى الله ((**وسبحاني**)) سبح تبارك وتعالى نفسه أي نزه نفسه ، وتسبيح الله تبارك وتعالى لنفسه كثير في القرآن ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨٠-١٨١] سبح نفسه جل وعلا عما يقوله أعداء الرسل ، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه في حق الله تبارك وتعالى من النقص والعيب.

قال: ((**سبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**)) فنسبة الولد لله كذلك نسبة الصاحبة هذا فيه انتقاص وهو يتنافى مع التعظيم ، والواجب هو تعظيم الله عز وجل وقدره حق قدره سبحانه كما هو المقصود والمراد بهذه الترجمة قول الله جل وعلا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧] .

قال رحمه الله :

ولهما عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر بيدي الأمر أقلِّب الليل والنهار)) .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: ((**يؤذيني ابن آدم**)) أيضا المراد بابن آدم ليس الجميع وإنما المراد بابن آدم : أي من يقع منهم هذا الخطأ ومن يقع منهم مثل هذا الكلام ، أما من كان سالما من ذلك وهم الرسل وأتباع الرسل بإحسان ؛ هؤلاء لم يقع منهم هذا الأمر وحفِظهم الله عز وجل منه وصانهم ، فالمراد بابن آدم : أي من يقع في هذا الخطأ ومن يقع في مثل هذا الكلام .

وقوله هنا ((**يؤذيني ابن آدم**)) لا يتنافى مع ما جاء في الحديث القدسي الآخر حديث أبي ذر ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي)) ؛ فالعبد مهما فعل ومهما كان منه من قول أو فعالٍ لن يبلغ ضر الله سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:٦١] ، وهو جل وعلا القدير على كل شيء ، وهو القاصم لظهور الجبابرة والظلمة والبغاة ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] ، ((لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي)) . فقوله هنا ((يؤذيني ابن آدم)) لا يتنافى مع قوله ((لن تبلغوا ضري)) لأن هذا أذى قولي يعني كلام قولي يقوله الإنسان وهو كلامٌ فيه أذى ، كلام فيه سوء ، كلام فيه قبح .

قال: ((يؤذيني ابن آدم)) ثم بيَّن ذلك قال: ((**يسب الدهر**)) أي يشتم الدهر ، والدهر: هو تقلب الليل والنهار ، الأيام ، الشهور، السنوات، الأسابيع، الساعات، الدقائق كلها أجزاء للدهر ، فالدهر هو تقلب الليل والنهار ، تقلب الليل والنهار في سنوات وفي شهور وفي أسابيع وفي أيام وفي ساعات وفي دقائق هذا كله تسخير من الله سبحانه وتعالى وتدبير ، فالأسبوع واليوم والشهر والساعة والدقيقة كلها لا تملك من أمرها شيء بل هي مسخرة مدبرة لا تملك شيئا ، المسخِر لها رب العالمين والمدبِّر لها رب العالمين ، فالله يقول : ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر)) ما هو سب الدهر؟ أن يقول الإنسان عندما يحصل له مشكلة معينة أو أمر معين أو شيء مؤذي معين فيسب الدهر ؛ يسب الساعة ، أو يسب اليوم ، أو يسب الشهر ، أو يسب الزمان ، أو نحو ذلك من الأوقات ، يعني مثلا يدرج على ألسنة الناس كثير من الألفاظ التي تدخل في الحديث ، ليس المراد يسب الدهر أن يكون السب متجه إلى هذه اللفظة بذاتها ، بل كل ما كان بمعنى الدهر أو جزء من أجزائه سبه من سب الدهر ، فتجد بعض الناس على سبيل المثال إذا وقع له مشكلة مع شخص معين سب الساعة يقول : "الله مثلا.." يشتم الساعة التي أو يصفها بصفات وهي ليس لها من أمرها شيء ، الساعة واليوم ليس لها من أمرها شيء هي مسخرة ومدبرة .

وهنا تنتبه أيضا للمعنى ((**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**)) ؛ «أنا الدهر» ما معناها ؟ ليس المراد أنا الدهر أي أن الدهر اسم من اسمائه أو صفة من صفاته ليس هذا المعنى ، جاء المعنى مبينا في الحديث ((أقلب الليل والنهار)) هذا هو المعنى والمراد بقوله «وأنا الدهر» ، فالدهر الذي هو تقلب الليل والنهار تقلبه بمشيئة الرب سبحانه وتعالى ، فالدهر مقلَّب ليس له من تقلبه أمر أو اختيار ، فسب المقلَّب سبٌ لمقلِّبه فالذي يسب الدهر الذي هو مقلب يقلبه رب العالمين كيف يشاء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان:٦٢] الله جل وعلا جعل الليل والنهار بهذه الصفة ، والليل والنهار والساعات والدقائق كلها بتسخيره وتدبيره سبحانه وتعالى ، فسب المسخر سبٌ لمسخِّره، سب المدبَّر سب لمدبِّره ، سب المقلَّب سبٌ لمقلِّبه .

قال: ((**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**)) فأمر الدهر بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يقلب تبارك تعالى الليل والنهار ، فسب الدهر سب لمقلبه ومسخره ومدبره وهو رب العالمين ، هذا معنى قوله ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر بيدي الأمر أقلِّب الليل والنهار)) .

والشاهد في الحديث للترجمة : أن سب الدهر يتنافى مع تعظيم الله سبحانه وتعالى ؛ فمن نقص تعظيم المرء لله أن يسب الإنسان الساعة أو يسب الزمان أو يسب اليوم أو يسب الدقيقة أو اللحظة أو ما أشبه ذلك كل ذلك سبه من نقص تعظيم الله جل وعلا . والمصنف رحمه الله عندما ساق أنواع الأحاديث في هذا الباب أراد أن ينبهك تنبيها جميلا نافعًا أن باب التعظيم لله باب واسع جدًا يصحبك في كل حياتك في كل كلماتك في كل حركاتك ، يجب أن تكون دائما في كل ما تقول وفي كل ما تفعل معظما لله تبارك وتعالى ، وإياك أن ينزلق بك الكلام هنا أو هناك وفي أي موطن فتأتي بكلمات تتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من تعظيم لله جل وعلا .

الإيذاء ليس بمعنى الضر ، يعني الله عز وجل نفى الضر وأثبت الإيذاء ؛ قال ((يؤذيني ابن آدم)) ، والإيذاء كما عرفنا كلمات يقولها ابن آدم وهي مؤذية ، والعبد مهما قال من كلامٍ أو فعل من أمرٍ لن يبلغ ضر الله تبارك وتعالى ((إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي)) .

والله تعالى أعلم .